مرجعيات التأسيس الثقافية

المبحث الاول: المرجعيات المحلية والعربية

تُحرّك مرجعياتُ التأسيسِ المحلية معظمَ فعالياتِ الإنسانِ وأنشطتهُ الحيوية على الأصعدة اللسانية والشعورية كافة، فحياةُ الإنسان المبدعِ تنعكسُ من الخارج البيئي بصورة آلية إلى صورٍ داخليةٍ لتنطلقَ ابداعاً حين تتوافرُ عناصرُ إنتاجِ الشعرِ من استعدادٍ فطري وتمكنٍ من تقنياتِ الكتابة. أي أن ثمة تدرجاً يحصلُ ضمن المحسوساتِ إلى الغياب الداخلي للمحسوساتِ ثم تجليها الخارجي إبداعاً.

فالبيئةُ هي الحيزُ الجغرافيُ والثقافيُ الذي يتحركُ فيه المبدعُ باستمرار بوصفهِ الجزءُ الأكبرُ من حياتهِ اليومية. إذ إن المبدعَ يتعاملُ فيها مع الناس، فهي ليست فضاءً زمكانياً مغلقاً؛ لأنها محتوى للذاتِ والآخرِ المتعدد. وفي ضوء هذه المعطيات فإننا لانقصدُ بالمرجعياتِ المحليةِ ذاتيةِ المبدعةِ أي تجاربها الخاصة بما حولها، فهي تقدمُ صوراً ذاتيةً تعالجُ قضيةً إنسانية من خلال موقفها ورؤيتها لهذه المشكلة، فموقفُ المبدعةِ هو موقفُ المجموع وتعاملها الفردي الذاتي مع الآخر الفرد/ المجموع. هذا الآخرُ المؤثرُ في بنيةِ الذات تأثيراً كبيراً. فالبيئة أداةٌ لصنعِ البنية تهدفُ إلى عقلنة الأسباب التي تجعل من تشكيلة النص مجموعةً منظمةً مركبةً تركيباً متكاملاً بكيفيةٍ تحليلية.

و(الملائكة) ليست بدعاً من غيرها، فقد أثّر محيطها العائلي الثقافة، والمسكن، وما شهدتهُ من أحداثِ العصرِ في نفسيتها ليبدو واضحاً على فنها الشعري والنثري؛ ذلك لأن عقل المبدع أشبه بنظامٍ شمسيٍ تنجذبُ إلى مساره العناصرُ كلها: اللغة، العقدة، الدوافع.[١]

وُلدت الشاعرة العراقية نازك الملائكة عام ١٩٢٣م في بغداد الرصافة ونشأت في بيتِ علمٍ وأدبٍ في رعاية أمها الشاعرة سلمى عبد الرزاق أم نزار وأبيها الباحث صادق الملائكة[٢]، وهيأت لها وسائل الثقافة و وأكملت الدراسة في دار المعلمين العالية آنذاك وتخرجت سنة ١٩٤٤ بدرجة امتياز ثم توجهت الى الولايات المتحدة لدراسة الإنكليزية وآدابها عام ١٩٥٠، إضافة الى أدب اللغة العربية التي اجيزت فيها، عملت أستاذة مساعدة في كلية التربية في جامعة البصرة في العراق[٣].

من المعلوم أن العائلة تمثلُ اللبنة الأساسية في بنيةِ المجتمعِ العراقي والعربي، وعائلةُ الملائكة تميزت بذلك أدبياً وثقافياً، فأبوها كان مثقفاً شاعراً أمتلك مكتبة احتوت على عديد الكتب سخرّها لتنمية وصقل موهبة صغيرته، وأمها كذلك نظمت الشعر فكانت معروفة بالشاعرة "أم نزار" الامر الذي سهّل لنازك ارتقاء منازل أعلى في سلم ولم تنشغل بأمور البيت العادية كأمثالها من البنات، أشارت لذلك نازك الملائكة في سيرتها الذاتية ((ولاحظ

١- ينظر: اتجاهات البحث الأسلوبي (مقالات مترجمة): د. شكري محمد عياد ، دار العلوم ، ١٩٨٥م: ٦٩.

٢ – ينظر: نازك الملائكة رائدة الشعر الحر، حسين مهدي ابو الوفا، مقالة، ٢٠١٩، اتحاد الكتاب، مج٤٨، العرب:٧١.

٣- ينظر: نازك الملائكة رائدة الشعر الحر، المصدر نفسه:٧١.

أبواي انني موهوبة في الشعر، شديدة الولع بالمطالعة، فأعفياني من المسؤوليات المنزلية، والعائلية اعفاءً تاماً، وساعدني ذلك على التفرغ والتهيؤ لمستقبل أدبي وفكري خالص))[١].

لقد مثلت نازك جزءاً رئيسياً من عائلة الملائكة بصفتها البنت البكر لهذه العائلة التي أثرت بشكل جلّي على تطور شخصيتها الأدبية وتفاعلها مع الاحداث السياسية في وقتها ((إضافة الى كل هذه الاحداث فقد تأثرت بما كانت تسمعه من مناقشات سياسية في مجلس والداها، فتسجل انطباعاتها وتواريخها في مذكراتها اليومية. فانعكس كل ذلك على شعرها مثل "عناوين واعلانات في جريدة عربية"، "القنابل والياسمين"، "سبت التحرير"، و "عن السلام والعدل" وغير ذلك من مثل هذه الاشعار))[٢].

وكما رسمت الاسرة خطاً واضحاً يؤدي بالضرورة الى تطور موهبة نازك، فقد وجدت في المدرسة المجال الرحب لإظهار وصقل هذه الموهبة ونظم القصائد وهي لم تزل طالبة ((وخلال دراستي في دار المعلمين العالية، كنت أساهم في حفلات الكلية، بألقاء قصائدي، وكانت الصحف العراقية تنشر تلك القصائد في حينها،... والواقع انني أقبلت على نظم الشعر إقبالاً شديداً منذ عام ١٩٤١ يوم كنت طالبة في الكلية فقد دخلت في ذلك العام بداية نضجي الروحي والعاطفي والاجتماعي))[٣]

١ – يغير الوانه البحر شعر نازك الملائكة، نازك الملائكة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٨: ٦.

٢ – نازك الملائكة دراسة ومختارات، الدكتور عبد الرضا علي، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١–١٩٨٧: ١٤١.

٣ – يغير الوانه البحر شعر نازك الملائكة، المصدر نفسه: ٨.

واكبت نازك أحداث بلدها العراق المختلفة السياسية وكان لهذه الاحداث انعكاسها على أدبها، ((وكان الهزة الوطنية الكبيرة لها في عام ١٩٥٨، حيث شهد العراق قيام ثورة تموز وقامت الجمهورية، واستقبلت نازك الخبر بفرحة عظيمة نظمت فيها شعراً،...، وقد أثار موت الملك فيصل الأول في صيف عام ١٩٣٣، وقتل الملك غازي أيضا في العراق الحزن والأسى واللوعة في نفسها))[١].

إن القدرة العقلية المتميزة لنازك ونشأتها في بيت ثقافة برعاية أبوين مثقفين منحها القدرة على فلسفة الأمور ((أما التفكير الفلسفي فقد تملكها منذ الصبا حتى غدى عادة من عاداتها تقول: "كنت دائماً أحب أن أفلسف كل شيء، وأغوص في حيثياته وأسبابه، وفي سنوات النضج أقبلت على قراءة الفلسفة". ويبدو أن إحساسها الدائم بأنها تختلف عن سائر البنات اللواتي كنّ في سنها أيام الطفولة كان نوعاً من التفكير الفلسفي الذي قادها الى الانعزال عنهن، لأننا وجدناها تقول: "فأنا كثيرة المطالعة، محبة للشعر والغناء، جادة قليلة الكلام، بينما هنّ لا يطالعن ولا يعبأن بالفن، وليس لهنّ من الجد في الحياة إلّا يسير... وعندما بلغت السادسة عشرة أصبحت أعد العزلة فضيلة الشاعر وحرية المفكر، ونبذت المجتمع. وانطويت على نفسي. ولكنني بعد الثلاثين أصبحت أجد سعادة في الصداقة ومعرفة الناس، وتذوق ما في شخصياتهم من جوانب جميلة"))[٢].

١ – نازك الملائكة دراسة ومختارات، المصدر السابق: ١٤١.

٢ – نازك الملائكة الناقدة، عبد الرضا علي ، كلية الآداب– جامعة بغداد، ١٩٨٦: ١٤، اطروحة دكتوراه.

لكل ذاتٍ كوامنٌ تستوطنُ دواخلها وتعمل فيها مؤثرة وبنّاءة لتفاصيل تلك الذات؛ فالتربية والأسرة والمدرسة والبيئة كلها تشكل مرجعيات محلية نهلت منها الملائكة ومثّلت جسراً عبرت من خلاله الى فضاء واسع للمرجعيات العربية ((أما والدتي فقد كان لها أثر واضح في حياتي الشعرية، لأنني كنت أعرض عليها قصائدي الأولى، فتوجه اليها النقد، وتحاول إرشادي، ولكني كنت أناقشها مناقشة عنيدة، فقد لاح علّي، منذ مرحلة الثانوية، التأثر بالشعر الحديث، شعر محمود حسن إسماعيل، وبدوي الجبل، وأمجد الطرابلسي، وعمر أبو ريشة، وبشارة الخوري، وأمثالهم))[١].

لكلِ ذاتٍ ارتباطاتٌ وجذورٌ تشدها الى بيئتها وأصولها وتظهر كيانها وتبرز ملامح شخصيتها، نازك الملائكة ليست استثناءً من هذه القاعدة، فقد تأثرت بمجموعة عوامل في بيئتها المجتمعية واستقرت في ذاتها ثوابتٌ عملت على بلورة وصقل شخصيتها، من تلك العوامل القومية فنازك عاصرت حقبةً زمنية برزت فيها الافكار القومية العربية للواجهة كآصرةٍ جامعةٍ للدولِ العربية وشعوبها كما في قولها: ((فالجو العربي في العراق– وغير العراق من أقطار الوطن– لا يملك إلّا أن يخلق عرباً، وهذه القومية هي محصول عاطفي وذهني تنبته تربتنا وسهولنا وانهارنا، فلو قتلونا كلنا، لنشأ بعدنا عرب مثلنا وارتفعت أغنية العروبة لتملأ الفضاء كما كانت دائماً))[٢]. كما أن نازك تطبعت بالإرث القومي ((إن

١ – يغير الوانه البحر شعر نازك الملائكة، المصدر السابق:٧.

٢ – القومية العربية والحياة، نازك الملائكة، مقالة ، منشورات الطليعة العربية، ١٩٨٥: ٣.

القومية العربية إرث في كياننا لا مهرب من أن نحمله ونخضع له ونتطبع به. إنها كائنة وواقعة))[1].

وكان للأحداثِ المتوالية في المنطقةِ العربية الأثر في بروز الوعي والحس القومي لديها، ولدى أسرة الملائكة، أسوة بباقي الأدباء في عصرها ((وكان الحس القومي و الوطني شديداً في بيتها، فقد عرفنا أن والدتها كانت مترددة في السفر وإجراء العملية الجراحية، وهي تقول لابنتها عندما سيطرت فكرة الموت على نفسها: "وأنا يا نازك عدوة لهم وشعري كله حرب على إسرائيل والصهيونية، ولذلك أخشى أنهم سيقتلونني فلا أرجع الى الوطن"))[2].

الأدب يحملُ في سطورهِ المشاعرَ التي يكنها الأديبُ تجاه الموضوع، فإذا كان الموضوع كبيراً بحجم الامة، وكان قلبُ الأديبِ يعتصرُ الماً حين يرى أمته تكابدُ العناء والمرارة، نراه يعبّر عن تلك الآلام بشعورٍ قوميٍ خالص. وقد أشارت نازك الملائكة للمفهوم نفسه عندما قالت: ((الواقع إن القومي أكبر و أوسع من أن يتمثل في مجرد الموضوع الذي يتناوله الكاتب، وإنما القومي هو الذي يعبّر تعبيراً أصيلاً عن الروح العربية بكل ما فيها من عفوية وانطلاق. إنه يمثّل، دون أن يقصد، لفتات ذهن الامة العربية وملامح شخصيتها الفكرية والروحية، وهو يحمل طابعها الشعوري ومستواها العاطفي والصفات العامة لشخصيتها، وهذا كله قابل لأن يتجسد سواء أتحدث الكاتب عن القومية أم لم يتحدث))[3].

---

١ – القومية العربية والحياة، المصدر نفسه:٣.

٢ – نازك الملائكة دراسة ومختارات، المصدر السابق:١٤٠.

٣ – الشعر النسوي في العراق ١٩٦٠م–٢٠٠٠م دراسة موضوعية وفنية، الدكتورة فرح غانم صالح البيرماني، دار المرتضى: ٧٧.

لقد كان التزامُ نازك بالقضايا القومية واضحاً من خلال سرعة استجابتها وتفاعلها مع أحداث الامة حيثما وقعت، وكان أدبها مرآةً صادقةً لهذه الاستجابة ((وقبل صدور ديوانها "عاشقة الليل" جاءتها الإنباء المفجعة عن ضحايا وباء الكوليرا في مصر، وراح هذا الوباء يحصد الناس بالمئات ويتزايد يوماً بعد يوم. وفي ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر من عام ١٩٤٧ وصلتها أخبار المذياع أن عدد الضحايا قد بلغ المئات. فالتهبت أحاسيسها وشعرت بكآبة ومرارة وحزن. فنهضت من غرفة نومها وأخذت قلماً وورقة وبدأت تكتب وتكتب، وجاءتها الأبيات منصاعة بشكل غريب. وعلى هذا الأساس ولدت أول قصيدة نظمتها في الشعر الحر. وهي تحت عنوان "الكوليرا" التي كتبتها في ساعة مما أثار فيها شعوراً عظيماً عبّر عن أحزانها واشجانها))[١] .

إن علاقة نازك ببيئتها وتأثرها بالفلسفة الرومانسية كان له الأثر الواضح في اعتزازها بعالمها المتخيل وتمسكها به فهذا العالم يبث في ذاتها كل جميل ويغنيها عن الواقع الذي يكدر صفو نفسها. ((كانت الشاعرة في بداية حياتها الأدبية التي تطابق عنفوان شبابها تتأثر من الشعراء الرومانسيين وكانت تحت تأثير فلسفة تشاؤم الفيلسوف الألماني المتشائم "شوبنهاور" فحياتها الأدبية تشكلت على هذا الأساس. وكانت الشاعرة بسبب هذه المؤثرات السلبية تغترب عن الناس بل تغترب عن نفسها، لأنها كانت تعجز عن التكيف مع المفاهيم العامة ومع كل ما يدور حولها وإنها كانت في هذه الفترة من الزمن في ذروة معاناتها وآلامها وكانت تهرب من الحقيقة والواقع فلم تكن قادرة على أن تصل الى الراحة النفسية كما تريد،

١ – موسوعة الشعراء العرب المعاصرين دراسات ومختارات، نجيب البعيني، دار المناهل، ج٢ :٣٣٩.

ربما يكون هذا سبباً أن ترحب الشاعرة بالموت وتحتضنه وكانت في ذروة الصراع بين نفسها وذاتها وبين مقتضيات الحياة وانعكست هذه الآثار السلبية على شخصيتها وسلوكها الاجتماعي مع الآخرين.))[1] هذه الفكرة أيدها الدكتور السعيد الورقي إذ قال: ((تأثر الشعر العربي الحديث بالنزعة الحزينة في أحزان الشاعر الأوربي، وتتجلى في أشعار (توماس آليوت) و الوجودي وتتبدى مشاعر الحزن في الشعر العربي الحديث بعد الفترة الرومانسية مباشرة، وفي أوائل العقد الخامس وقبيل من القرن العشرين التي تأثرت بمظاهر الحزن في الحركة الرومانسية ظهر ذلك جلياً في أعمال نازك الملائكة، إذا يقابلنا ذلك الحزن الرومانسي، فتجلّت في أعمالها الشعرية مشاعر اليأس والكآبة الحزينة الناتجة عن الإحساس بعدم التوازن النفسي بين الذات والواقع الخارجي، فضلاً عن الفشل في تحقيق مثاليات الذات في ذلك الواقع))[2].

خطف الموت منها والدتها عام ١٩٥٣م في لندن بعد دخولها العمليات وخروجها منها متوفية[3]، تبع ذلك وفاة عمتها فكان ذلك طعنة غدر من القدر لها[4].

١ – نازك الملائكة وابداعاتها الشعرية؛ رؤى نقدية، حسين شمس ابادي– مهدي ممتحن، مجلة إضاءات نقدية فصلية محكمة، السنة الثانية – ع٥، آذار ٢٠١٢: ٦٢.

٢ – بواكير حركة الشعر عند الرواد بين التأثر والتأثير(نازك الملائكة والسياب) أنموذجاً، هيام عبد الكاظم ابراهيم، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، العدد ٢٠، تموز ٢٠١٥: ٢١٥.

٣ – ينظر: تجربة الاغتراب عند نازك الملائكة، عبد الله احمد المهنا، كتاب تذكاري، مؤسسة الربيعان، الكويت، ط١، ١٩٥٨م: ٤٦٩.

٤ – ينظر: نازك والحوار مع الماضي الرؤيا المقيدة دراسات في التفسير الحضاري للأدب، شكري عياد، الهيئة المصرية للكتب، د. ط، ١٩٨٧م: ١٨٧.

إن نازك الملائكة عكست صورة المرأة التي حملت الحس الوطني والقومي، فقد جعلت من أمتها ووطنها الموضوع الأول في عالمها، وأدبها النسوي ينبض بنضال الامة وقضاياه القومية. وقد أشارت نازك الى مفهوم القومية وعلاقته بالأدب حيث تقول: ((ولعل أصدق قومية هو الذي لا يدري أنه قومي، كالطفل العربي الذي يتلقى انطباعاته في بيئة عربية فلسوف تنطلق العروبة في كل ما يقول ويفعل سواء أعرف ذلك أم لم يعرفه))[١].

مثلت نازك الملائكة إحدى ركائز الأدب العربي الحديث وكانت أحد رواد الشعر الحر ((وقد اعترفت نازك بعد عدة سنوات بأن شعراء آخرين نظموا قبلها قصائد حرة وأعادت إنطلاق القصيدة الحرة الى سنة ١٩٣٢. لكن تبقى قصيدة (كوليرا) في رأي كثيرين هي التي أسهمت فيما بعد بأطلاق الشعر العربي من الشكل الكلاسيكي للقصيدة العربية، ومهدت للشعراء الذين ظهروا بعدها في العراق الطريق الى هذا النوع الشعري في العالم العربي))[٢]

تعد قضية الشعر الحر من الصق القضايا ارتباطا بنازك الملائكة فقد تناولتها عدة مرات. فهي تقرر أن الشعر الحر((ليس وزناً معيناً او أوزاناً – كما يتوهم أناس – وإنما هي أسلوب في ترتيب تفاعيل الخليل تدخل فيه بحور من البحور العربية الستة عشر المعروفة ولذلك فإن أول مدخل ينفذ منه الشعر الحر الى كتب العروض أن يحصي مع الاشكال الشعرية العامة التي ندرسها)). وفي عام ١٩٦٧ تقرر في مقدمة ديوانها "شجرة القمر" أن الشعر الحر – بالصورة التي كان عليها – لا يمكن أن يستمر وإنه لابد أن يتوقف. تقول:

١ – الشعر النسوي في العراق ١٩٦٠م–٢٠٠٠م دراسة موضوعية وفنية، المصدر السابق: ٧٩.

٢ – موسوعة الشعراء العرب المعاصرين دراسات ومختارات، المصدر السابق: ٣٣٧.

ويتناول الدكتور عبدة بدوي في بحثه عن نازك الملائكة موقفها من القافية وهو موقف يظهر فيه التردد بين الميل على القافية والميل لها، فهي تحترم القافية زمناً في مطولتها "مأساة الحياة" وتحمل عليها حملة ضارية في ديوان "عاشقة الليل" وترى في القافية حجراً يلقم كل بيت. وتسخر من القول بثراء العربية الذي يساعد على القافية الموحدة.[١] ويبدو أن موقف نازك النظري والعملي من قضية الشعر الحر قد تطور أو تغير مع بداية السبعينات في خطين متعارضين، أولهما ينزع نحو الأمام، وثانيهما ينزع نحو النكوص والارتداد وهو ما أشارت اليه في طبعة كتابها الرابعة التي صدرت عام ١٩٧٢ ميلادي،...ففي مقدمة هذه الطبعة تذكر أنها طورت مفهومها للشعر الحر، وتجاوزت في تقنيته أطروحاتها السابقة عن التفعيلة الصافية الى تقنية التفعيلة المركبة[٢].

لم يقتصر نشاط الملائكة على الشعر و فقط إنما تعدى ذلك الى مجالات أخرى ((لم تكن نازك شاعرة فحسب وإنما هي باحثة ناقدة للشعر والمجتمع فقد نشرت ونقدت وردت على كثير من البحوث على صفحات المجلات العراقية والعربية منذ عام ١٩٤٧ وكما يشهد بذلك مجموع كتبها التي ضمت هذه البحوث))[٣].

يعد نتاج نازك مفخرة أدبية يعتز بها الأدباء، وهي في ذات الوقت فخر للنساء، تبدي الناقدة والشاعرة الدكتورة سلمى الخضراء الجيوسي رأيها فتقول: ((لقد برزت إلى ميدان

---

١ – ينظر: نازك الملائكة دراسات في الشعر والشاعرة، الدكتور عبد الله احمد المهنا، الربيعان، الكويت، ١٩٩٢،: ٢٢٩-٢٣٠.

٢ – ينظر: نازك الملائكة وقضية الشعر الحر، نعيم حسن اليافي، مقالة، مجلة قوافل، مج٣، ع٥، النادي بالرياض، ١٩٩٥: ٣٢.

٣ – نازك الملائكة في المراجع العربية والمعربة، المصدر السابق: ٧.

الأدب قائدة رائدة في الحقلين الشعري والنقدي وحمل أسمها في الخمسينيات فترة التجريب الحاد في الشعر العربي رنة سحرية وألقاً باهراً في العالم العربي كله، وهذا إنجاز لا يستطيع أحد أن يأخذه منها... وبهذا فإن إنجازات نازك الملائكة مأثرة إنسانية كبيرة ومثل متوهج على تفوق المرأة المبدعة وقدرتها على تجاوز مثالب عصرها))[١].

إن الفتح الذي حققته نازك بمنجزيها: الشعري والنقدي لا ينبغي أن ينظر له على أنه فرادة شخصية من دون معرفة قيمة هذا الفتح في إعادة رسم شخصية المرأة على خارطة الإبداع وترسيخها، ولكن بملامح جديدة وبمواقع جديدة لم تحتلها المرأة فيما سبق قوامها الريادة والصدارة، فمع هذا المنجز وما مهده لغيره ما عاد من الممكن ممارسة أي شكل من أشكال الوأد الثقافي وليس لمؤرخي الحديث أن يطمسون، مرة أخرى، أدب المرأة العربية أو إلقاء نموذج نازك الوضاء في زاوية الظل[٢].

ولأن منجز الملائكة منجز أصيل يرتكز على قاعدة رصينة قوامها: الموهبة الفذة، والجهد الكبير، والمثابرة، والمشارب الثقافية الغنية المتنوعة عربية وعالمية؛ لذلك فبعد مرور السنوات واستقرار الرؤية لأهمية ما قدمته نازك نجد أن منجزها صار مثار إعجاب النقاد الرجال من أجيال نقدية مختلفة، فعطاؤها معين لا ينضب للدارسين يقول الدكتور عناد غزوان: ((إن ريادة نازك الملائكة تأريخاً وإبداعاً هي إحدى الإضاءات الأهم للتجربة الشعرية الفنية العربية الحديثة من خلال استشراف دقيق ووعي صادق بالعلاقة الجدلية بين التأريخ

١ –نازك الملائكة في المراجع العربية والمعربة، المصدر السابق: ١٦.

٢– ينظر: المرأة واللغة، د. عبدالله الغذامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ، ط ٣، ٢٠٠٦: ١٧.

حدثاً وفكراً وتطوراً متجدداً والإبداع فعلاً تعبيرياً متفاعلاً مع روح العصر مستجيباً لواقع إنسانه المعاصر في عالم يعج بالحركة من خلال لغة وأشكال ومضامين تترجح بين الطموح الذاتي والنظرة المستقبلية الجماعية ..))[١].

إن بيئة نازك الملائكة الفريدة أثرّت بشكل واضح في صقل شخصيتها وأتاحت لها المجال الواسع للاتكاء على المرجعيات الأدبية المحلية والعربية واحتلال المكانة البارزة في عالم الأدب بشقيه الشعر والنثر وأخذ الريادة في الشعر الحر مما جعلها علماً بارزاً بين أعلام الأدب العربي الحديث. ((لا شك أن تجربة نازك الملائكة الشعرية والقصصية والدور الذي لعبته في مجال النقد الشعري في مطلع الحركة الشعرية الحديثة مهد لها لكي تتبوأ سريعاً أكبر مركز أدبي في تلك الفترة (كذا)، وهو أعظم مستوى أدبي وصلت إليه امرأة عربية حتى ذلك الوقت))[٢].

إن الريادة العراقية لنظرية الشعر الحر ربما تكون قد جعلت نازك الملائكة لا تستقرء نماذج تطور الشعر الحر خارج العراق بوصفه شكلاً شعرياً أخذ مداه لدى الشعراء العرب المعاصرين لنازك والسياب، لذلك نجدها ركزت على بعض المقاطع من قصائد مدورة لعبد

١- نازك الملائكة والريادة في الشعر والنقد، د. عناد غزوان، نقلاً عن مجلة الأقلام، ع كانون الثاني- شباط ٢٠٠٨: ٣٩.

٢ - المرأة وصورة المرأة عند نازك الملائكة، د. سلمى الخضراء الجيوسي، نقلاً عن مجلة الأقلام، ع كانون الثاني- شباط، ٢٠٠٨: ١٦.

الوهاب البياتي، وحسب الشيخ جعفر، وغاب عنها النموذج الريادي الأول للشاعر خليل الخوري في رائعته ((الشمس والنمل)) وهو أمر أقره أكثر من باحث[1].

مثلّت نازك الملائكة حالة فريدة في تأريخ الأدب العراقي والعربي الحديث، وهي خير مثال يمكن أن يُقتدى به، فهي تمكنت من إزاحة الكثير من العقبات التي يمكن أن تعيق المرأة في بناء سيرة إبداعية وضّاءة، ومن الظلم أن لا نقول: إن نازك قد ألهمت العديد من النساء العربيات المبدعات ، بل هي مصدر إلهام لكل مبدع من كلا الجنسين، إذ أنها فتحت الأبواب على مصراعيها أمام كل متخوف من أن يقدم ابداعه الخاص.

١- ينظر: وهج العنقاء- دراسة فنية في شعر خليل الخوري، ثامر خلف السوداني، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠١: ١٧٥.

المبحث الثاني: المرجعيات العالمية

من خصال الإنسان قدرته على اكتساب وتعلم المهارات من غيره ونقصد هنا بالغير هو الآخر سواء كان إنساناً أو بيئته المحيطة به، هذه القدرة على نقل وتناقل المعرفة هي التي تميز الإنسان المبدع /الواهب للأدب عن العادي/المتلقي. تنقلت نازك الملائكة كنحلة وارتشفت رحيق المعارف من مناهلها المحلية والعربية والغربية وتمكنت من صهر هذه المعارف في بوتقتها، وصنعت منها تجربتها الخاصة المميزة في عالم الأدب العربي الحديث. لعل مقولة "بول فاليري" عن أثر الآخرين في تكوين ثقافة الكاتب يمكن أن تكون قاعدة أدبية عامة تنطبق على المبدعين جميعاً، في مجالات شتى من المعرفة،...، لأن وراء كل إبداع مميز مؤثرات أكثرها وضوحاً اتساع دائرة ثقافة المبدع، وصلابة أرضيته الفنية، وإدراكه أن إبداعه لم يأتي بالموهبة حسب، إنما بتملكه لأدوات أصالته التي تستند_ أول ما تستند_ الى هضم الموروث، واستخلاص حالات الإبداع فيه، ومعرفة مؤثرات الحاضر الثقافية، واستلهام معاناة النفس الإنسانية ومشاعرها، وذهولها عبر تجاربها التاريخية والحاضرة، وطموح رؤيتها المستقبلية[1].

ثقافة الأديب ((تلك الموروثة من أسلافه أو التي يكتسبها جراء اتصاله مع ثقافة مجتمع آخر)) تثبت في نصوصه الأدبية، وتصبح جزءاً من كينونته، وتعمل على تطوير ذاته. ((فدائما نجد ثقافة الآخر تدخل عنصراً مكوناً في تشكيل ذاتنا الثقافية، مثلما تدخل ثقافتنا عنصراً مكوناً من عناصر ثقافة الآخر. بدرجات متفاوتة وعلى وفق كل الاحتمالات

١ – ينظر: نازك الملائكة الناقدة، المصدر السابق: ١٥.

الممكنة: فالقوة قد تشكل الآخر– قسراً تراكمياً أو دوراناً ولعباً عليه، والتواصل المفضي إلى التفاعل الثقافي الإنساني قد يشكل الآخر– وهذا هو الاحتمال الإيجابي المرتجى))[1]

تميزت الملائكة بكونها شخصية متعددة المواهب، اجتهدت في إغناء ذاتها من خلال الاطلاع والتعرف ودراسة العديد من اللغات والفنون إضافة إلى الشعر ((وقد درست فضلاً عن العربية وعلومها اللغة الإنكليزية فأطلعت على أعمال شكسبير، وبايرون، وشيلي، وكيتس بلغتهم دون ترجمة، واللغة اللاتينية وأطلعت على مختلف العلوم والثقافات، وفي عام ١٩٤٢ درست التمثيل بعد صعوبة واجهتها في موافقة والدها على ذلك في معهد الفنون الجميلة رافق ذلك دراسة العزف على العود لتغني وتعزف ألحان محمد عبد الوهاب، وأم كلثوم، وفيروز، وعبد الحليم، وفي عام ١٩٥٠ م درست الشعر الإنكليزي والدراما الحديثة استعداداً للدخول لجامعة كامبردج))[2].

يحسب للملائكة سعيها لتطوير ذاتها الأدبية مبكراً من خلال دراسة الأدب الإنكليزي وهي لم تزل طالبة في دار المعلمين ((أما الأدب الإنكليزي فقد بدأت عنايتها به وهي طالبة في دار المعلمين العالية يوم كانت تقرأ شعر شكسبير و(مسرحية حلم ليلة صيف) وقد ترجمت الى العربية إحدى سونيتات شكسبير يومئذ. وقد أقبلت بعد ذلك على قراءة شعر بايرون وشللي. وفي عام ١٩٥٠م دخلت دورة في المعهد البريطاني ببغداد درست فيها

١ – ثقافة منحنية في المشهد الثقافي الراهن، د.عبد العظيم رهيف السلطاني، المركز العالمي لدراسات وابحاث الكتاب الأخضر، بنغازي، ليبيا، ط١، ٢٠٠٥: ٥.

٢ – ينظر: نازك الملائكة حياتها وشعرها، يوسف عطا الطريفي، الاهلية للنشر والتوزيع، عمّان، ط١، ٢٠١١م: ٣٣– ٤٤.

الأدب الإنكليزي استعداداً لامتحان تقيمه جامعة كمبرج وقد نجحت في هذا الامتحان في آخر العام ولم تتح لها الفرصة بعد ذلك لإكمال الدراسة وتقديم الامتحان التالي فقد سافرت في نهاية العام الى الولايات المتحدة الامريكية للدراسة))[1] .

أثّر الأدب الإنكليزي في صنع شخص الملائكة الأدبي فكانت مُحبة لهذا الأدب الى درجة أنها أفصحت عن ولعها به وبعدد من شعراءه (وقد ذكرت نازك في إحدى رسائلها أسماء الشعراء الإنكليز الذين أحبتهم، مما جعلنا نعّد تلك الرسالة وثيقة مهمة – في الكشف عمّا كان في ثقافتها من أثر غربي– تبيح لنا الاستشهاد بجزء منها، وإن كانت الرسالة شخصية، فهي تقول فيها: (وأولهم عندي شكسبير في مسرحياته وسونيتاته وقصائده الطويلة، فقد أحببته أشد الحب، وما زلت أجد النشوة في قراءة شعره، فهو شاعر الذروة. يليه جون كيتس الذي درسته دراسة موسعة، وحفظت كثيراً من شعره. يليه فرانسس تومسن، وروبورت بروك، و. ت. س. آليوت، وويتس، ودولون توماس، ومن الشعراء الذين أحببت شعرهم دون جون)[2].

عبرت نازك "القناة"* من الجانب الإنكليزي إلى الجانب الفرنسي وشرعت بدراسة اللغة الفرنسية مضيفة بعداً أدبياً آخر إلى ثقافتها الأدبية ((وفي عام ١٩٤٩ بدأت دراسة اللغة الفرنسية في كتاب أعطاها إياه عمها فأقبلت هي وأخوها نزار الذي يصغرها سناً على

١ – نازك الملائكة في المراجع العربية والمعربة، المصدر السابق: ١٥.

٢ – نازك الملائكة دراسة ومختارات، المصدر السابق: ١٩.

* – (قناة المَانش) بالإنجليزية (Channel) : هو جزء من المحيط الأطلسي الذي يفصل بريطانيا عن فرنسا ويربط بحر الشمال بالمحيط الأطلسي، يعد معبرا بحريا بين إنكلترا وفرنسا.

دراسته. وقد واصلت دراسة اللغة الفرنسية وحدها عدة سنوات، ثم دخلت المعهد الفرنسي عام ١٩٥٣ فترة قرأت خلالها موباسان و موليير والفونس دوديه وكانت تحضر هذه الدراسة في حماسة شديدة وخلال ذلك جمعت لنفسها مكتبة صغيرة من الشعر الفرنسي والقصص وكتب النقد والفلسفة لأساطين الفكر الفرنسي وأقبلت على قراءتها))[١].

واضبت الملائكة على تنمية مداركها العقلية وتوسيع آفاقها الأدبية من خلال الاطلاع على اللغة اللاتينية التي تُعد الأصل للغة الإنكليزية واللغات الاوربية الأخرى ((وقد واصلت دراسة اللغة اللاتينية سنوات كثيرة مستعينة بالمعاجم، ثم دخلت صفاً فيها في جامعة (برنستن) بالولايات المتحدة، فدرست نصوصاً للخطيب الروماني (شيشرون) وأعجبت بشعر الشاعر اللاتيني (كاتولوس) وحفظت مجموعة من قصائده ما زالت تترنم بها أحيانا في وحدتها))[٢].

إن مسالة التأثر عند نازك الملائكة بالآداب الأجنبية، لم تكن نابعة من نقطة الصفر، بل تأثرت الشاعرة فيما مضى بالشعراء (وليم شكسبير، ولوركا وأديت ستويل)[٣]، وإن ثقافة نازك وغيرها الشعرية الكلاسيكية، واستيعابها للتراث فضلاً عن ((التحكم الفائق في منح الاعتبار العالي للأسلوب اللغوي وحركة المفردة ومتانة السبك المشرق، وتدفق الرمز الموحي، والالتزام الجاد بالتكنيك، وتمكنها من امتلاك ناصية البحور التقليدية، والضبط

١ – نازك الملائكة في المراجع العربية والمعربة، الدكتور صباح نوري المرزوك، دار الشؤون الثقافية العامة، ع ٦٩، الموسوعة الثقافية ، بغداد، ط١،٢٠٠٩: ١٤.

٢ – نازك الملائكة دراسة ومختارات، المصدر السابق: ١٧.

٣– ينظر: الشعر الحر بين النظرية والتطبيق، علي الحلي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٥: ١٦.

الدقيق لموسيقاها الهيكلية والداخلية ذلك كله كان من أهم العناصر التي أغنت قصيدتها الجديدة وأعطتها لونها ورائحتها ونكهتها))[1].

نهلت نازك الملائكة العلوم المختلفة المشارب، وكان لدراستها اللغات الإنكليزية والفرنسية واللاتينية نصيباً في إنشاء وبلورة ذاتها الأدبية، فهذه اللغات سمحت لنازك أن تضيف معارف غير متاحة في الأدب العربي وذلك لطبيعة تلك اللغات واختلافها عن اللغة العربية" اللغة الام لنازك"، وهنا يظهر دور الإبداع في ذات الملائكة حيث تمكنت من الاستفادة بحرفية عالية من الأدب الإنكليزي والفرنسي واللاتيني ودعمت به ثقافتها الأصيلة وطورتها بشكل أضاف لمسات جمالية غير خادشه لتلك الأصالة ((وإذا كان هناك من رأى أن موقف نازك من الثقافة الغربية هو موقف متطرف على الرغم من أن نازك نفسها تأثرت بالأدب الغربي، فذلك يعبر عن قصور رؤيته لموقف نازك المشرف وليس المتطرف، فنازك لم تظهر العداء للثقافة الغربية كاملة بل حاولت الحفاظ على ثقافتها من الإنجراف وراء الجوانب السلبية التي شاعت في الثقافة الغربية، وهي لم تعدم تأثرها بالأدباء الغرب بما مكنها من إثراء الأدب العربي عبر حالة من التلاقح الثقافي البناء))[2].

١- الشعر الحر بين النظرية والتطبيق، المصدر نفسه: ٣٠.

٢ – في مقالة نقدية باللغة الانكليزية تناول نسيم رجوان الورقة البحثية الموسومة ((الغزو الثقافي)) التي قدمتها نازك في مؤتمر الكتاب العرب الخامس الذي عقد في بغداد عام ١٩٦٥ مؤكدة أهمية الحفاظ على أصالة الثقافة العربية وسموها، مشيرة إلى الغزوين الغربيين: العسكري، والثقافي للبلاد العربية. ينظر: المقال في أدناه في الرابط الإلكتروني:
Nazik al-Malalika's poetry and its critical reception in the West - Modern

http://findarticles.com/p/articles/mi_m٢٥٠١/is_n٤_v١٩/ai_٢٠٥٧٦٦٢٠pg_٦/?tag=content; col١

إن التأثر عند ((جيل شعراء الحرب العالمية الثانية، ولاسيّما عند السياب وأدونيس وحاوي وصلاح عبد الصبور ونازك الملائكة، أكثر نضجاً، لقد تمثل هؤلاء الروافد الأجنبية وتعمقوا فيها، وصهروا كل ذلك في ذواتهم مما زادهم غنى في تجاربهم، وقد كانت البيئة الحضارية العالمية التي نهلوا منها مدعاة لتفجير طاقاتهم وأدت إلى تعميق ادراكهم لطبيعة المأزق الذي يعانيه العالم العربي))[١] .

وينبغي الاشارة إلى أنه ((لا ذات بلا آخر، ولا ذات بلا تأثير– والتأثير هنا نوع من الشرارة تسطع عند الآخر، وتوجه الذات إلى مزيد من معرفة نفسها – مزيد من اكتشاف ما في أعماقها من الضوء الكامن، التأثير بكلام آخر تنبيه لهذا كان لابد لما تأخذه الذات، عبر هذا التنبيه، من أن ينصهر فيها ويتماهى معها، لا أن يبدو كأنه يلتصق التصاقا، لكن حين يكون التأثر التصاقاً لا تعود المسألة مسالة إبداع، بل مسألة إمحاء))[٢] .

وتلك المؤثرات الغربية عند نازك لا تعني أنها مقلدة لهم، فتلك المؤثرات الغربية/الآخر استمدتها نازك الملائكة، وتمكنت من صهرها في بوتقة تجاربها الخاصة، وكان موقفها من تلك المؤثرات موقفاً أصيلاً. ((ظلت قراءة ناقدتنا للأدب الغربي قراءة فاحصة دقيقة جملتها تحصن نفسها من خطر الغزو الفكري، ومواقف بعض الأدباء الأوربيين الداعية الى معاداة المجتمع، وإزدراء الإخلاق، وكره الحياة، والشعور باليأس، والرعب والإيمان بالعبث واللاجدوى، والإستغراق في الجنس واللأخلاقية. لهذا وجدناها

١– المؤثرات الأجنبية في الشعر العربي المعاصر، يوسف حلاوي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٧: ٢٣.

٢– سياسة الشعر، أدونيس، مكتبة بغداد، الناشر دار الآداب – بيروت، ط١، ١٩٨٥: ٧١.

تتصدى للمزالق الكامنة وراء كل موقف من هذه المواقف تصدي العارف الخبير. ولعل بحثيها "الأدب والغزو الفكري" و "محاذير في ترجمة الفكر الغربي" يفصحان عن وعي نقدي حصيف))[١].

فثقافة نازك الإنسانية ثقافة منفتحة حتى ليجدها الدارس قابلة ((لأن تتحاور مع المتغير الآتي عبر الفضاء الزماني والمكاني والبشري)) فرؤيتها للذات الحاضرة والآخر/ الماضي نوع من القيم المتحركة في ثقافتنا توجه تلك القيم الماضوية للتجلي في المنجز الفكري والثقافي الحاضر.[٢]

((وكانت رؤية الشاعرة للشعر العربي وللقصة أيضاً، أنه يقف على حافة التطور العاصف، فالأوزان والقوافي والأساليب والمذاهب سوف تنتزع قواعدها جميعاً والألفاظ ستتسع لتتضمن آفاقاً جديدة واسعة من حيث قوة التعبير، فالتجارب الشعرية (الموضوعات) سوف تتجه إلى داخل النفس، نتيجة الاطلاع على الآداب الأوربية ودراسة أحدث النظريات في الفلسفة والفن وعلم النفس))[٣].

((والتطور الذي يحدث في الفنون والآداب في عصر ما، أكثر ما يكون ناشئة عن التقاء أمتين أو أكثر، فقد يحدث أن أمة معينة تخمد قابليتها وتركد قروناً كاملة بتأثير عوامل خاصة، ثم يأتي عليها زمن متوثب يوقظها فتتململ وتتحرك، وترنو إلى ما حولها، وتبدأ

---

١ – نازك الملائكة الناقدة، المصدر السابق: ٢١.

٢ – ينظر: ثنائية الذات والآخر في شعر السياب، علي عبد الرحيم كريم، كلية التربية، جامعة بابل ، ٢٠٠٧: ٣٠، رسالة ماجستير.

٣– ينظر: نازك الملائكة الناقدة، المصدر نفسه: ٢١.

استيعاب ما فاتها من ثقافات فتستفيد من تجارب أمة مجاورة بقيت نشيطة فأضافت إلى الفكر الإنساني فصولاً لامعة...))[1].

١- الاعمال الشعرية الكاملة، نازك الملائكة، المجلس الاعلى للثقافة، الكويت، ج٢، ٢٠٠٢: ٢١.